مجلة اللغة العربية وآدابها علمية محكمة
السنة ١٣، العدد ٣، خريف ١٤٣٩هـ
صفحة ٣٣٧- ٣٥٨

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
jal-lq.ut.ac.ir

الخطابة المملوكية آلياتها ومضامينها (خطب ابن نباتة نموذجاً)

علي دودمان كوشكي[١]، جهانگير أميري[٢]*، زهرا جليليان[٣]

١. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة رازي، كرمانشاه
٢. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة رازي، كرمانشاه
٣. ماجستيرة في اللغة العربية وآدابها من جامعة رازي، كرمانشاه

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٧/٤/١٩؛ تاريخ القبول: ٢٠١٧/١٢/١٠)

الملخّص

الحروب المستمرة التي فرضها المغول شرقاً والصليبيون غرباً على الدولة المملوكية جعلت الخطباء ومنهم ابن نباتة المصري يقومون في خطاباتهم النارية بحشد المقاتلين وشحنهم بقوّة قتالية هائلة لإفشال الغزاة وإلحاق الهزيمة بهم. ألقى ابن نباتة وهو من أعلام الشعر المملوكي وخطبائه الكبار، خطابات عديدة تعدّ صورة مختزلة ومقتضبة للخطابة المملوكية. ولذلك ركزنا البحث على خطبه دارسين مضامينها وآلياتها الفنّية اعتماداً على النهج الوصفي- التحليلي. ومن أبرز ما تفيدنا هذه الدراسة أنّ الظروف السياسية والاجتماعية العامة في ذلك العصر انعكست نوعاً ما في الخطابة المملوكية وألقت بظلالها عليها بما فيها كلمات ابن نباتة. فكان الخطباء يمزجون خطاباتهم بنماذج قرآنية لحثّ السامعين على الخوض في الجهاد حتّى اصطبغت كلماتهم بصبغة دينية وسياسية وأخلاقية واضحة. كما انطبعت أيضاً بطابع حماسي وبطولي رائع نتيجة تشجيع الخطباء للمقاتلين لاقتحام المعارك. يمكن اعتبار الخطابة المملوكية بما فيها خطابات ابن نباتة بضاعة تحتاجها السوق المملوكية ومحاولة جادّة لتوحيد صفوف المقاتلين ورفع كفاءاتهم القتالية ضدّ الهجوم المغولي والصليبي الشرس.

الكلمات الرئيسة

خطابات ابن نباتة، الآليات الفنّية، المضامين الرئيسة، الصبغة الدينية، الأخطار المغولية والصليبية.

---

* الكاتب المسؤول
Email: gaamiri686@gmail.com

مقدمة

الخطابة فنٌّ شفهي ينطوي ضمن فنون النثر. شهدت الخطابة تطوراً هاماً ومفصلياً في العصر المملوكي. والسبب أنّها أصبحت آلية مؤثّرة وموحية تساعد الدولة المملوكية في الحروب لتحقيق الانتصار على أعداءها. (الفاخوري، ١٩٨٦: ٣٧١) ومن أبرز أعداءها المغول الذين كانوا يطمعون في ضمّ بلاد الشام الخاضعة للحكم المملوكي إلى دولتهم. والصليبيون الذين كانوا يطمحون إلى استعادة بيت المقدس التي كانت آنذاك بيد المماليك. (أميري، ١٣٧٨: ٣٠) بناءً على ذلك كانت الدولة المملوكية بحاجة ملحة إلى الخطباء البليغين البارعين في تشجيع المقاتلين وتحريك حماسهم ضدّ الأعداء. من هذا المنطق اتّخذت الخطابة المملوكية منحىً جديداً واتّسمت بسمة العاطفة والحماسة. من ناحية أخرى استلهم الخطباء من القرآن الكريم ما منح كلماتهم صبغة دينية. (ضيف، ١٩٥٦: ٢٧٨) المتتبّع للخطابات المملوكية تجد أنّ المضامين الواردة فيها كانت ولا تزال مفيدة وبنّاءة على مدى الأجيال وطول الأمصار إذ إنّها تزوّد قارئيها بالثقافة الدينية وتمتّعهم بمتعة أدبية فنّية رائعة. أضف إلى ذلك أنّ القارئ لهذا المقال يحصل على معلومات قيمة فيما يتعلّق بفنّ الخطابة في ذلك العهد شكلاً ودلالة. ويتعرّف على صيغة خاصة من النثر لعب دوراً أساسياً في قرون عدّة للحفاظ على البلدان الإسلامية وممتلكاتها بأدبها الرّاقي ومضامينها المستوحاة من التراث القرآني الفخم.

ألّف عمر موسى باشا الناقد والأديب المصري كتاباً حول ابن نباتة سمّي كتابه بابن نباتة أمير الشعراء.

جدير بالتنويه أنّ الخطابة المملوكية تسير على رتيبة واحدة إذ كان الخطباء يلقون خطاباتهم على نمط واحد دون فوارق تُذكر. ذلك لأنّ الغاية التي يتوخاها الخطباء حنيذاك هي تهذيب النفوس وتنوير العقول ورفع معنويات المجتمع بنشر الثقافة الدينية وإشاعة الطقوس الإسلامية بين أبناءه. ولذلك إذا شئت أن تطالع الخطبة المملوكية فبإمكانك أن تختار أياً من الخطباء دون أن يكون ثمّة فارق بينهم. على أية حال فإنّنا اخترنا خطابات الشاعر والخطيب الشهير ابن نباتة المصري لدراسة خطب العصر نظراً لكثرة خطبه بالنسبة لسائر الأدباء من جهة ومكانته الأدبية التي جعلت الناقدين يسمّونه بأمير الأدباء من جهة أخرى. مهما يكن من أمر فإنّ التساؤلات التي تمليها علينا هذه الدراسة هي كالتالي:

١. ما هي أهمّ الأسباب السياسية والدينية المؤثّرة على خطابة ابن نباتة؟

٢. ما هي أبرز الآليات الفنّية المستخدمة في صياغة خطاباته؟

٣. ما هي أبرز وأوضح المضامين المتوافرة في خطب ابن نباتة؟

والفرضية التي يدور حول رحاها هذا البحث المتواضع هي أنّ خطابات ابن نباتة كغيره من الخطباء تواكب العصر المملوكي وتتماشى مع حاجاته في تشجيع المقاتلين بالمضامين المقتبسة من الثقافة الدينية والقرآنية للخوض في المعارك التي اندلعت بين الدولة المملوكية وأعداءها من المغول والصليبيين. فتكتسي خطاباته صبغة دينية وسياسية واضحتين. زد على ذلك أنّ خطابات ابن نباتة تكون مرآة صافية تعكس الحياة العامة في العصر المملوكي ولذا من شأنها أن تكون مصدراً خصباً وصالحاً لدراسة الدولة المملوكية وظروفها السياسية والاجتماعية والدينية.

خلفية البحث

لم نستطع العثور من خلال بحثنا عن خلفية الموضوع على دراسة شافية ووافية تناولت الخطابة المملوكية إلّا أنّنا عوّلنا لإعداد مقالنا هذا على المصادر الّتي تتعلّق بشكل أو آخر بدراستنا هذه فمن الكتب: ١. الفن ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف؛ ٢. الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم لحنا الفاخوري؛ ٣. عصر الدوّل والإمارات لشوقي ضيف؛ ٤. تاريخ الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني لجهانگير أميري.

ولقد استفدنا من المعلومات القيّمة المستوردة في الكتب المذكورة أعلاه لمعرفة الأوضاع السياسية والاجتماعية والأدبية المؤثرة في الخطابة المملوكية. ولم تتطرّق الكتب السابقة إلى فنّ الخطابة سوى إشارات عابرة سريعة دونما تحليل أو تنقيب. ومن المقالات: مقال عنوانه «بررسي تطور خطابه در دوره جاهلي وصدر اسلام» (دراسة تطوّر الخطابة في العصرين الجاهلي والإسلامي) لعبد الحسين فقهي. درس المؤلف الخطابة في العصرين المذكورين ولم يُشر إلى العصر المملوكي لكنّنا استقينا من المناهج والأساليب المستخدمة في المقال لمعالجة الموضوع. والمشكلة العويصة الّتي واجهناها عبر كتابة المقال أنّنا لم نكد نعثر على مصدر خاص يحمل في ثناياه الخطابات المملوكية بما فيها خطب ابن نباتة في مجموعة موحّدة، فلذلك رصدنا الخطب وهي متناثرة في مطاوي الكتب فوجدناها بشقّ الأنفس ومن أبرز الكتب الّتي تحتوي على الخطابات المملوكية بشكل غير منتظم فهي: ١. الأدب في العصر

المملوكي لمؤلّفه سلام زغلول (مجلّدات ١ و٢ و٣ و٤)؛ ٢. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي (مجلّدات ١٢ و١٤ و١٥ و١٧ و١٩). من الجدير ذكره أنّه نوقشت أطروحة جامعية لمرحلة ماجستير أعددتها زهرا جليليان في فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة رازي. قدّمت الكاتبة دراسة مستوفاة للخطابة بمختلف أبعادها الفنية والشكلية وباللغة الفارسية. وهذا المقال يكاد يكون مأخوذاً ومقتبساً من تلك الأطروحة مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ مقالنا هذا جُعل خصيصاً لدراسة خطب ابن نباتة دون غيره.

الخطابة لغة واصطلاحاً

كلمة "الخطابة" مشتقة مِن "الخطب" بمعنى الأمر العظيم والحدث الجلل وسمّيت بالخطابة لأنّه يتحدث فيها الخطيب عن الأحداث الهامة والمواضيع الجليلة وكلمة "الخطابة" اسمٌ أصله مصدر والخطيب هو مَن يلقي الخطابة على السامعين. (ابن منظور، ١٩٨٦: ج٥/٢٩٦)

وقال الزمخشري بهذا الصدد: "الخطبة" بضم الخاء تعني إلقاء الكلام على المسمعين كما يقال: "خطبَ الخاطبُ على المنبر خطبة" ومنها لفظة "الخِطبة" وهي تعني طلب يد المرأة من أبيها فهو الخاطب وهي المخطوبة ووجه التسمية هو أنّ الخاطب يلقي كلمة أثناء عملية الخطوبة. (الزمخشري، ١٩٥٣: ١٤)

والخطابة اصطلاحاً هي "إلقاء الكلام على المستمع بهدف الإقناع والتأثير" وبكلمة أخرى تُطلق الخطابة على كلمات عذبة معسولة مؤثّرة يلقيها الخطيب على سامعيه يريد بها إقناعهم والتأثير في نفوسهم. وكفاها شأناً وأهمية أنَّ علماء المنطق عدّوها صناعة هامة مِن الصناعات الخمس. (فتح الله زاده، ١٣٨٧: ٧)

يستخدم الخطيب البارع براعته ومواهبه لاختيار كلمات تتلاءم وظروف الخطابة ومتطلبات المقام يؤثّر بها على السامع ويحثّه على القيام بما يرومه الخطيب عن طوع وقناعة. (زيدان، ١٩١٤: ج٢/١١٩)

وقد حدّد "فروغي" الخطابة بأنها: فنّ التأثير على السامع وتحريضه على تصديق الخطيب والكلمة التي يوظفها الخطيب تُدعى الخطبة أو الخطابة. (فروغي، ١٣٤٤: ١)

وعرّف الفيلسوف الأغريقي الشهير أرسطاطاليس المشهور بأرسطو الخطابة بأنَّها: «قوّة تتكفّل الإقناع الممكن في كل أمر ذي بال يستحقّ جهد الخطيب» (أرسطاطاليس، ١٩٥٩: ٩).

ولإميل ناصيف كلمة بشأن الخطابة هي: الخطابة نوع من الكلام يعرف بالخطبة يلقي في الناس وغايته التأثير والإقناع وهي فنّ مِن الفنون الأدبية عرفه الإنسان منذ القدم إذ مارسه الأنبياء والزعماء والقادة. (ناصيف، ١٩٩٥: ٥)

مهما يكن تعريف الخطابة ومغزاها فإنَّ لها دوراً كبيراً ومكانة مرموقة عبر التاريخ إذ إنّها صناعة عقلية وأدبية وفنية استعملها الأنبياء والأئمة والعلماء وقادة الشعوب وكلّ من له موقع متميز وشأن ذي بال كآلية للتأثير والإقناع في كافّة العقول الدينية والثقافية والسياسية والعلمية وما شابه ذلك من مجالات الحياة.

تتألّف الخطابة بشكل عام من ثلاثة أجزاء رئيسة هي: ١. المقدمة وهي ما يبدأ به الخطيب ويريد به لفت انتباه السامعين. فمن الجدير بالمقدمة أن تكون موجزة وجذابة تمهّد الطريق لإلقاء الخطابة وتمنح السامعين الهدوء والاستعداد للإصغاء إلى كلمة الخطيب. ٢. العرض والمقصود به القسم الرئيسي للخطابة يوصل أثناءه الخطيب قناعاته وآراءه للسامع مصحوبة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة ٣. الختام وهو القسم الأخير مِن الخطابة يحتوي على خلاصة لما ألقاه الخطيب. فلابّد من أن يكون مقتضباً وواضحاً ومؤثّراً يترك أثراً خالداً في نفوس المستمعين. (ناصيف، ١٩٩٥: ٦) وأمّا فيما يتعلّق بأسلوب الخطابة فيجب القول بأنّه يجب أن يكون مقنعاً ومعتمداً على أدلّة واضحة تقنع السامع أو عاطفة مثارة تؤجّج حماسة وتشجّعه على التضامن والتعاطف مع الخطيب. فمن أبرز العناصر الفنّية التي يجب أن تحويها الخطابة هي: قوّة التأثير والإقناع وقوّة الاحتجاج والبرهنة والعواطف المتوقّدة والمحمومة واعتماد الوضوح والمباشرة وتجنّب التكلف والغموض والتعقيد وكلّ ما يقلّل من تأثير الخطابة. وقد قُسّم فن الخطابة إلى أقسام عدّة من أهمّها: أ: الخطبة السياسية وهي الخطبة التي تحمل ما ينويه صاحبها من أغراض سياسية كالحرب أو السّلم وما يمت إلى شؤون البلاد وتدبير الملك بصلة. ب: الخطب الدينية وهي ما يلقيه الخطباء في المساجد أو الكنائس من النّصح والموعظة والحثّ على الخير والفضيلة والالتزام بالدّين والعقيدة وسبيل الرّشاد ج: الخطب الحربية وهي كما يبدو من تسميتها خطب يستخدمها الخطباء لإثارة الحماس وتحميس روح الشجاعة والقتال في نفوس المقاتلين للدفاع عن الأوطان والأعراض حيال الأعداء والمعتدين وثمة أنواع أخرى للخطابة لم نتطرّق إليها لقلّة شأنها وأهميتها مقارنة مع ما ذكرناه آنفاً. ولا جدال فيما تحظى به الخطابة من أهميته. إذ لا يخفى على أحد الدور الذي تؤدّيه الخطابة بمختلف أنواعها في الحفاظ على مصالح الأمم والشعوب والدفاع عن الأديان

والمعتقدات وتهذيب النفوس ونشر الثقافات والتقاليد وإشاعة القيم والأخلاق والفضيلة وإثارة العواطف وتنوير العقول والحثّ على المضيّ قدما على درب العلم والإيمان.

الخطابة عبر العصور المختلفة

ظهر فنّ الخطابة لأول مرة لدى الشعوب الإغريقية. فتمت وترعرعت حتى أصبحت فنّاً له قواعده وحدوده عند هذه الشعوب. تعتبر «آثينا» العاصمة الإغريقية أول بلد اشتهر خطباءها بالبلاغة انطلاقاً من كونها مهد الحضارّة والخطابة. (فروغي، ١٣٤٤: ١٩)

فكانت الخطابة تستخدم لعقد المصالحات وإبرام الاتّفاقيات كما كانت توّظف في المحاكم لإدانة المجرمين أو تبرئة الأبرياء وخلاصة قول أنّ الخطابة كانت ركيزة أساسية تقوم عليها الحياة المتحضّرة. (خفاجي، ١٩٩٠: ١٧١)

كان للخطباء البارعين دور لا يستهان به في تحقيق الانتصار عند نشوب الثورات السياسية والدينية واندلاع النّزاعات القائمة بين الدول المتخاصمة «فكانت الغلبة في تلك الحروب والصراعات من نصيب البلاد التي تمتلك خطباء يتقنون فنّ الخطابة ويجيدون آلياتها وآدابها» (فقهي، ١٣٩٠: ٦٢).

لا شكّ أنّ الوقوف على المواقف التي شهدتها الخطابة من العصر الجاهلي حتى العصر المملوكي الذي ندرس الخطابة فيه عبر هذا المقال يعطينا صورة واضحة شفّافة للخطابة المملوكية على صعيد الشكل والدلالة. فلنبدأ جولتنا في الخطابة من العصر الجاهلي:

المضامين الرئيسة التي كانت تتناولها الخطابة في العصر الجاهلي تعكس الحياة الجاهلية بحذافيرها. فمن أبرز القضايا المنطوية تحت الخطابة في الحقبة الجاهلية: المفاخرات القبلية والتحريض على الحرب والسلام والمراثي. كانت فصاحة الألفاظ وقصر الفقرات والاحتواء على الحِكم والنصائح من السّمات الرئيسة التي تتميز بها الخطابة في الطور الجاهلي. كان للإسلام بالغ أثره على الحياة الجاهلية بما فيها الشعر والخطابة. شكل العصر الإسلامي منعطفاً هامّاً للخطابة العربية إذ أعجب الخطباء العرب بالأساليب التعبيرية والفنون البلاغية لقرآن الكريم التي تحتلّ قمة البلاغة وذروة الفصاحة. فتأثروا بها واستقوا من منهلة العذب ونميره الصافي حتّى الارتواء. ثمّ كان الرسول الأعظم ﷺ يبدأ خطبه بالحمد والثّناء. لله ربّ العالمين مستخدماً فيها السجع بألوانه وضروبه. فصارت كلماته النّيرة مثالاً يحتذى ونموذجاً يتّبع. زد على ذلك أنّ الخطب التي كان الإمام علي عليه السلام يلقيها تركت بصماتها ولمساتها على الخطب العربية شكلاً ودلالة.

فضلاً عن ذلك أنّ الأحداث الدينية والسياسية الهامة التي شهدها العصر الإسلامي والأموي أثرت على الخطابة العربية ما أدّى إلى إثراءها الدّلالي آخذاً بنظر الاعتبار أنّ الحياة العربية في العهد الأموي ازدادت تعقيداً إثر تطوّرها من الحياة القبلية إلى الحياة الحضرية ما يستدعي تطوّر الخطابة بشكل يتأقلم مع أحداث الساحة وتتجاوب مع متطلبات العصر. (زيدان، ١٩١٤: ١٤٤)

جدير بالذكر أنّ المجتمع الأموي انقسم إلى شيع وأحزاب فاحتدم بينها التنافس فكان لكلّ حزب خطيب يدافع عنه بحماس متوقّد فكان لاحتدام التنافس بين الأحزاب المتنازعة أثرها في ازدهار الخطابة وبلوغها القمة في الفترة الأموية. (الفاخوري، ١٩٨٦: ٣٢٥) انحسر ظلّ الخطابة في العصر العباسي وخمد لهيبها وفقدَ دوره ومكانته مقارنة مع العصور السابقة. وقد علّل شوقي ضيف ركود الخطابة في الطور العباسي قائلاً: «إنَّ غياب الأحزاب وتدنّي مكانتها قلّل من أهمية الخطابة وجعلها بمعزل عن حياة الناس» (ضيف، ١٩٥٦: ٧٥).

المؤثرات العامّة على الخطابة المملوكية

تأثّرت الخطابة في الحقبة المملوكية بالأحداث الكبرى التي ألقت بظلالها علي الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية.

لم يكن للسلاطين المماليك ماض مجيد ينتسبون إليه ولا ثقافة دينّية ينتمون إليها لكنّهم كانوا قد نشأوا وترعرعوا تحت حماية الدولة الأيوبية التي تمثّل دولة إسلامية تحرص على إجراء أحكامه وحدوده على قدم وساق. (خفاجي، ١٤١٢: ج١٢٦/٢)

فلمّا قامت الدولة المملوكية وتربّع المماليك على عرش الملك ساروا على نهج الأيوبيين واقتفوا أثرهم فأخذوا على عاتقهم الذّود عن الدين الإسلامي واللغة العربية. فقاموا بنشر الثقافة العربية وروّجوا للشعائر الدينية وبنوا المساجد وأنشأوا المدارس والمكتبات وأغدقوا الأوقاف على علماء الدين وأحيوا الطقوس الدينية بشكل عمّت الثقافة الإسلامية العربية كلّ البلدان التي تخضع لحكمهم وسيطرتهم.فضلاً عن ذلك فقد جنّد السلاطين أبناء الشعب تحت لواء الإسلام وزجّوا بهم في الجيوش التي تقاتل المغول والصليبين الغزاة. لمّا كانت السمة الغالبة لتلك الحروب سمة إسلامية عمل العلماء والأدباء بمن فيهم الخطباء على تحريض الرعية على مواجهة الأعداء مستمدّين في ذلك المشاعر الدينية كأداة صالحة لغرس البطولة في نفوس المقاتلين الأبطال. فأخذت الخطابة طابعاً دينّياً وأصبحت المعاني

الدينية السامية المغزى الرئيسي في الخطب المملوكية. حقّق المماليك انتصارات باهرة في حروبهم ضدّ الأعداء. هذه الانتصارات أثارت إعجاب الشعراء والخطباء وخطف بريقها بالأبصار. فاندفعوا إلى الإشادة بالسلاطين الأشاوس والتغنّي بشجاعتهم ومهاراتهم القتالية. من هذا المنطلق تحفل الخطابة المملوكية بالمعاني المتعلّقة بالقضايا السياسية والدينية والأخلاقية. كان الخطباء في صلوات الجمعة يتطرّقون إلى أحداث سياسية واجتماعية تمسّ حياة المجتمع ويؤكدون على التحلّي بالصفات الكريمة والأخلاق الحميدة ويمدحون المآثر والأمجاد التي سجّلها المماليك.

نقوم فيما يلي بدراسة الخطب المملوكية دراسة شكلية ودلالية اعتماداً على الخطابات التي نطق بها الشاعر الفحل والخطيب المصقع ابن نباتة المصري بادئين بالدراسة الدلالية أو المضمونية.

أبرز المعاني في خطابات ابن نباتة

لقد راجعنا معظم المصادر التي تناولت الخطب المملوكية لكي نرصد المواضيع التي تشمل خطب ابن نباتة فبعد أن سبرنا أغوار خطبه وجدنا أنّ الخطب التي ألقاها ابن نباتة تحمل في طياتها معاني متعدّدة ومتنوّعة تأخذ إمّا طابعاً سياسياً أو دينياً أو أخلاقياً. مِن الملفت في الخطابة المملوكية بعامة وخطب ابن نباتة بخاصّة أنّها تسير على رتيبة واحدة فإذا قرأت خطابات ابن نباتة مثلاً فإنّك تكاد تكون قد قرأت الخطب المملوكية برمّتها. والسبب في ذلك ربما يكمن في الجمود الفكري والركود الأدبي والثقافي الذي خيم على العصر المملوكي ما انعكس سلباً على المنتجات الأدبية شعراً كان أم نثراً. وممّا زاد الطين بلّة أنّ المماليك كما أشرنا سابقاً كانوا من أصول غير عربية وكان لهذا الأمر آثاره السيئة والهدّامة على الأدب المملوكي عامّة والخطابة خاصّة.

وفيما يلي نستعرض أهمّ المضامين التي تناولها ابن نباتة في خطاباته علماً أنّنا رأينا أنّه من الأفضل:

أن نكرّس هذه المضامين في ثلاثة حقول دينية وأخلاقية وسياسية نظراً إلى أنّها تنصبّ في هذه الحقول الثلاثة فلنبدأ بالحقل الديني:

المضامين الدينية في خطابات ابن نباتة

معظم ما قاله ابن نباتة في كلماته ينخرط في إطار المضامين الدينية. اهتمّ ابن نباتة في خطبه بالقضايا الدينية تلبية لحاجة لمسها في البيئة المملوكية التي كانت تعجّ جنباتها

بالنزاعات والمصائب. فكان الناس في تلك الظروف الصعبة في أمسّ الحاجة إلى كلمات تنبع من صميم الثقافة الدينية والتي تمنح النفوس الهدوء والاطمئنان وسكون البال وتبعد عنهم الشعور بالخوف والقلق والإحباط. علاوة على ذلك كان الخطباء بمن فيهم ابن نباتة يروّجون لثقافة الجهاد والقتال ضد الكفّار والمعتدين لكي يكونوا مستعدين للتصدي للخطر الذي كان يهدّد المجتمع المملوكي من قبل المغول والصليبين وقد تحدّثنا سابقاً عن هذا الخطر المستفحل. أبرز المضامين الدينية التي تستوعبها كلمات ابن نباتة هي كالتالي:

البدء بحمد الله وشكره

كان ابن نباتة يبدء كلماته بالحمد لله والشكر لنعمه وآلاءه: «.... أحمده على السَّراء والضَّراءِ، وأستعينه على شُكرِ ما أسبغَ مِنَ النَّعماء وأستنصِرهُ على الأَعداءِ...» (زغلول سلام، د.ت: ج٢/١٣).

يذكر أنّ المقصود بالأعداء هم المغول والصليبين الّذين كانوا يطمعون في مصر والشّام وما جاورهما آنذاك من البلاد. لذلك كان الخطباء في خطاباتهم يستنصرون الله على كلّ من أراد بهم سوءاً أو شرّاً.

مدح النبي محمّد ﷺ

كان ابن نباتة يصلّي بعد الحمد لله على رسوله الكريم محمّد ﷺ وهو النبيّ الّذي بشّرت بظهوره الكتب السماوية مِن التوراة والإنجيل مصحوباً بالمدح والثّناء.

«... وأشهد أنَّ محمّداً عبدُه ورسولُه الممدوحُ في التوراةِ والإنجيلِ والتنزيلِ وصلّى اللّهُ عليه» (خفاجي، ١٤١٢: ١٥٧). ربّما ألمح الخطيب إلى التوراة والإنجيل استعطافاً لليهود والنصارى وتأليفاً لقلوبهم لكي يقفوا مع المسلمين في صفوف متراصّة موحّدة ويناصرونهم ضدّ الأعداء. فكان المجتمع المملوكي بأمسّ الحاجة آنذاك إلى رصّ الصفوف وتوحيدها إذ كان مهدّداً من قبل المغول الهمجيين والصليبيين المتعصبّين.

عدم قدرة الإنسان على مدح الله

للمضامين الأخلاقية في خطابات ابن نباتة حيز كبير فكان يذكر الخطيب سامعيه بأنّ الأنعم التي أنعم بها الإنسان لا تُعدّ ولا تُحصى فلو مدح الإنسان ربّه ليل نهار وإلى آخر حياته لن يتمكن من تأدية واجبة أمامه ولا يخفى أنّ التنويهَ إلى النّعمِ الّتي أسبغَها اللّهُ على الإنسانِ ظاهرةً وباطنةً مِن شأنه أن يرغّب المخاطبينَ في حمد الله وشكره بقلب نابض بمحبّة الله.

«... إنّ للّهِ عليكم نعماً لا تَعرفون لها قدراً ولا تُطيقونَ لِمكافأتِها حمداً ولا شكراً أسبغَ نِعَمَهُ الظاهرةَ والباطنةَ عليكم...» (خفاجي، ١٤١٢: ١٥٧). فلو أمعنّا النظر في كلمات الخطيب لوجدنا أنّها تعيد إلى أذهاننا آية قرآنية تنصّ على أنّه من المستحيل إحصاء نعم اللّه والآية هي ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**...﴾ (إبراهيم/٣٤) فلو قورنت الخطبة بالآية الكريمة لتبيّنت أنّها مستمدّة ومستلهمة من الآية الكريمة بشكل لا غبار عليه.

العلم الإلهي يشمل الخلائق كلّها

كان الخطيب ابن نباتة يشدّد دائماً على أنّ اللّهَ يعلم كلّ شيء ولا يخفى عليه شيءٌ. فإذا تيقّن الإنسان من صميم قلبه بأنّ اللّه يراه ويعلمه آناء اليل وأطراف النهار فلن يبادر بالمعصية في حضرة اللّه ولذلك كان الخطباء ينبّهون السامعين بعلم اللّه وشموله لكلِّ شيء صغيراً كان أم كبيراً: «... فسبحانَ مَن أنزلَه مِن بَحرِ عَظمتِه إلى سَماءِ مملكتِه بكيلٍ مكيولٍ ووزنٍ موزونٍ ويعلَمُ عدّةَ قطراتِه...».

تطرّق الخطيب في كلماته السابقة إلى المطر وسير تكوينه منذ أن تتصاعد الأبخرة من البحر إلى السماء حتّى تُصبح في الجوّ أمطاراً يعلم اللّه بعدد قطراتها...

التّنويه بخلائق اللّه

نوّه الخطباء بمن فيهم ابن نباتة إلى آيات اللّه الباهرات كأفضل طريق للفت الأنظار إلى عظمة اللّه وقدرته. سار الخطيب ابن نباتة على منهج القرآن الكريم حيث ينبّه الناس إلى ما يجدونه حولهم من الخلائق فعلى سبيل المثال ولا الحصر: ﴿**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ**﴾ (الغاشية/١٧-١٩) وقد وجّه الخطيب المملوكي انتباه السامعين إلى الجبال الشاهقة التي تنحدر منها المياه المتدّفقة: «... ينزلُهُ مِن جبالٍ شواهقَ مرتفعةً فَتقذفُه إلى أرضٍ مُنخفضةٍ وأوديةٍ مُنقطعةٍ...» (خفاجي، ١٤١٢: ١٥٨).

الإشادة بالأئمة الهداة

لقد عبّر كثير من الخطباء في الظرف المملوكي عن أهل بيت النبي ﷺ بالأئمّة المعصومين عليهم السلام الّذين يضيئون الدّرب للسائرين على نهج الحقّ. فمثلهم مثل النجوم الزاهرة التي تلمع ويستضيء بنورها كلّ من ضلّ طريقه في صحراء مترامية الأطراف وسط ظلام حالك أو شأنهم شأن المنارة التي تهتدي السفن الجارية في البحار بنورها فلا تصطدم بالصخور المحطّمة حتّى تصل إلى شاطئ البرّ والأمان: «... أيها الناسُ اعلموا أنّ الإمامةَ فرضٌ مِن فروضِ الإسلام...» (زغلول، د.ت: ج٢/١٤).

ولا يخفى أنّ الخطيب الذي تفوّه بهذه الكلمات يحمل العقيدة الشيعية علماً أنّ الاعتقاد بالإمامة ركيزة من الركائز الشيعية الأساسية.

كلّنا عائدون إلى الله

الخطابات المملوكية مفحمة بالمضامين الأخلاقية والدينية المستمدّة من القرآن والحديث ومن أبرز التوصيات الأخلاقية التي تتحلّى بها الخطب في ذلك المقطع هي أنّنا نعود ونرجع إلى الله. ليس سرّاً أنّ الإنسان حالما يعيش حالة اليقظة والبصيرة من أمره لا يخوض مع الخائضين في الملاهي ولا يغفل ما خُلق من أجله. فيحاول في أن يستنفد سحابة عمره فيما يرضي ربّه ويضمن له حياة طيبة في الدّنيا والآخرة. «... فإلى متى هذهِ الغفلةُ والقساوةُ ولم يبقَ مِنَ العُمرِ إلّا القليلُ...» (ابن خلكان، ١٩٤٨: ج١٥٦/٣).

المضامين الأخلاقية في كلمات ابن نباتة

انتشرت في البيئة المملوكية عادات أخلاقية سيئة وانحرافات سلوكية خاطئة حتّى باتت مهدّدة بالخطر واصبحت على شفير الانهيار في المزالق والمهاوي. هذه الظاهرة الردئية جعلت الخطباء بمن فيهم ابن نباتة يحثّون أبناء المجتمع على التخلّق بالأخلاق الكريمة والتحلّي بالفضائل. فإليك بعض ما تحدّث عنه ابن نباتة فيما يتعلّق بالمضامين الأخلاقية

الآثام مدعاة لسفك الدماء

نهى ابن نباتة عن اقتراف الذنوب وارتكاب الآثام لمّا يثيره فعل الآثام في النفس من الجرأة على إراقة الدّماء. يفسّر ذلك بأنّ ارتكاب المعاصي يقتل العاطفة الإنسانية ويزيد القلب قسوة وعنفاً ما يفضي إلى استصغار الجرائم البشعة والاستخفاف بها في عين مرتكبي الذنوب: «... ولا سُفكتِ الدّماء إلّا بارتكابِ المآثم...» (زغلول سلام، د.ت: ج١٣/٢).

قرب الآجال وقصر الأعمار

النصائح والمواعظ تحتلّ حيزاً كبيراً في الخطب المملوكية. كان الخطباء يعيدون دائماً إلى الأذهان أنّ الأعمار قصيرة والآجال قريبة. فكانوا يوّظفون في خطاباتهم التراث العربي من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والأشعار الحكيمة والأمثال السائرة. ممّا يساهم في إلقاء المعاني وإيصال الأفكار إلى المخاطبين بطريقة ملموسة ومؤثّرة. شدّد ابن نباتة على أنّ الموت هو مصير الإنسان المحتوم الذي لا مناص منه ولا محيد عنه. من أبرز الحكم التي كرّره ابن نباتة في كلماته هو أنّ الدنيا ليس بدار قرار بل هي جسرٌ يوصلنا إلى الحياة

الآخرة: «... يا عبادَ اللّهِ إلى متى يا صاحِ هذا الحرصُ والأملُ وقد قَرُبَ الرّحيلُ. واقتربَ الأَجلُ ولا تَطمَعوا في هذه الدّنيا فإنَّ البقاءَ مُستحيلٌ...» (خفاجي، ١٤١٢: ١٥٧).

الأسلوب الخطابي الذي استعمله الخطيب في خطبته زاد من قدرتها الإقناعية وطاقتها الاستيعابية لدى المخاطب المتلقّي.

التوبة والإنابة فرصة للتعويض عمّا فات

أكد الخطباء في الطور المملوكي على التوبة والإنابة كفرصة مهيأة لمن قضى مدّة من عمره في الغفلة منهمكاً في الشهوات المُردية والآثام الموبقات. فإنّه بإمكانه أن يضرب عمّا فعله صفحاً ويفتح صفحة جديدة بيضاء مشرقة. فقال ابن نباتة بهذا الصدّد: «... يا مولعاً بلذّاتِك ومُصِرّاً على زلّاتك، أمّا آن أنّك تائبٌ...» (خفاجي، ١٤١٢: ١٥٧).

المضامين السياسية في كلمات ابن نباتة

لم تقتصر كلمات ابن نباتة على قضايا دينية وأخلاقية فحسب بل كان الخطيب يهتمّ أحياناً بالشؤون السياسية بتحريض المقاتلين على الخوض في الحروب لدرء الأخطار المغولية والصليبية عن ساحة الدولة المملوكية والمجتمع. «وفي السياق نفسه أنّ الدولة المملوكية كانت مهدّدة بالأخطار الّتي أحاطت بها عن أيمانها وعن شمائلها. علاوة على الفتن والاضطرابات التي عانتها دولة المماليك كان الصليبيون غرباً والمغول شرقاً يهجمون عليها. يحلم الصليبيون في حروبهم ضدّ المماليك باستعادة البيت المقدس وضمّها إلى المملكة الإفرنجية ولا يخفى ما لبيت المقدس من مكانة تأريخية ودلالة رمزية ما حثّ الإفرنج على انتزاعها من أيدي المماليك ليل نهار. من ناحية أخرى كان المغول والتَتر والغزاة الأجانب يطمحون إلى فتح مصر والشام لإشباع نهمهم وإرضاء جشعهم في التوسّع من رقعة الفتوحات والاستيلاء على دولة المماليك» (أميري وآخرون، ١٤٣٧: ٥). النماذج الّتي يشاهدها القارئ الكريم تالياً تتعلّق بشكل أو بآخر بالقضايا السياسية الطارئة على المسرح المملوكي:

قسوة الأعداء وعنفهم

لقد أسفلنا سابقاً أنّ الخطابات المملوكية لا تخلو من القضايا السياسية وخاصة ما يتعلّق بالأخطار التي يشكلّها الأعداء للشعب من المغول والصليبيين. صوّر ابن نباتة في كلماته قسوة الأعداء وسفكهم للدّماء وانتهاكهم للحرمات محرّضاً السامعين على مواجهة العدّو القاسي للذود عن ذمارهم وحماهم: انظر في الخطبة التالية كيف يصف لنا الجرائم البشعة التي

اقترفتها أيدي الأعداء الأثيمة حيث حصدوا الأرواح وسفكوا الدّماء ونهبوا الأموال وانتهكوا الحرمات فلم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال ولم يؤثّر فيهم عويل النساء ولا بكاء الصغار: «فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دَخلوا الشّامَ واستباحوا الدّماءَ والأموالَ وقتلوا الرجالَ والأطفالَ وهتكوا المحارمَ وعلَتِ الصيحاتُ مِن هَولِ ذلكَ اليومِ الطويلِ فَكم مِن شيخٍ خُضّبت شيبتُه بِدماءه وكم مِن طفلٍ بكى فلم يرحَم لِبكاءه...» (زغلول سلام، د.ت: ج٢/١٤).

استخدم ابن نباتة ببراعة فائقة الآليات البيانية والجمالات البلاغية لرسم صورة هائلة ومثيرة. في مخيلة المخاطب من هذه الآليات "لو" التمنية فهي من شأنها أن تثير الفضول لدى السامع ثمّ صوّر تفاصيل المشهد ودقائقة من بكاء الأطفال وضجّة النساء وقتل الرجال وإراقة الدماء ...أضف إلى ذلك أنّ استعمال الشاعر لـ «كم» الخبرية التي تفيد الزيادة والتكثير تساهم على رسم منظر مهول مظلم.

الحثّ على مواجهة الأعداء

الخطابة المملوكية تشمل على الأساليب البيانية المثيرة لروح الحماس والبطولة لدى السامعين فلا يغيب عن بالنا أنّ أبناء الشعب المملوكي كانوا يتوقّعون هجوم الأعداء عن أيمانهم وعن شمائلهم فكان الخطباء يسعون جاهدين لتحريض المخاطبين على التأهّب والاستعداد لمكافحة الأعداء كفاحاً مستميتاً مخلصاً. عبّر ابن نباتة عن مواجهة الأعداء بالجهاد لما لهذه المفردة من تأثير في استنهاض الهمم وإثارة الحمية في نفوس المقاتلين الشجعان: «... الجهاد محتومٌ على جَميعِ الأنامِ ولا يقومُ عَلَمُ الجِهادِ إلّا باجتماعِ كلمة العبادِ...» (زغلول سلام، د.ت: ج٢/١٣).

من الملاحظ أنّ ابن نباتة ينظر إلى الجهاد كفرض واجب لا يختصّ بقوم دون قوم ولا ملّة دون ملّة كما نظر إليه كمدعاة للوحدة والوئام بين آحاد الشعب.

الدراسة الشكلية والجمالية للخطب

الخطب المملوكية كناتج من النّتاج الأدبية في العصر المملوكي تتميز بآليات فنّية وتقنيات أدبية اعتاد الخطباء استعمالها. نسلّط فيما يلي الأضواء على بعض المقوّمات الفنّية والشكلية التي شكلّت الخطابة المملوكية بادئين بالعاطفة:

العاطفة

العاطفة لها دور هامّ لا يستهان به في بناء الهيكل العظمي للخطابة.

اعتبر بعض الأدباء العاطفة «دعامة من دعائم النص الأدبي الأساسية والتي تضمن له الخلود والبقاء وهي التي تحفّز القارئ أن يقرأ أو يسمع النّص مراراً وتكراراً دون أن يشعر بالملل والكلل» (أمين، ١٩٦٧: ٣٩). الخطابة المملوكية بشكل عام تفتقر إلى العاطفة لأنّها في مجملها خطبٌ تعليمية والخطب التعليمية لا تحتاج إلى العاطفة بقدر ما تحتاج إلى عناصر فنية أخرى مثل المعاني السامية والأفكار القيمة. اللهم إلّا إذا أراد الخطيب تحريك العواطف وتشجيع النفوس وتأجيج الحماس لدى السامعين فحينئذٍ يطلق عنان العاطفة لتسود الخطابة. على سبيل المثال لو أراد الخطيب أن يحرّض المقاتلين لصدّ هجوم الأعداء وإلحاق الهزيمة بهم فمن الطبيعي أن يستفيد من الآليات والتكتيكات التي تزيد من قوّة العاطفة وترفع مستواها في الخطابة. مثلما فعله ابن نباتة الخطيب البارع الذي استخدم عاطفة الحزن عندما يتحدّث عن آلام الغربة . العناء الذي يتحمّله الإنسان الغريب.

تحدّث ابن نباتة عن مشاعر الغربة بكلمات تعزف سمفونية حزينة وأنغاماً شجية.

فقال إنّ الغريب لا يشعر بالأمن والراحة ولو بلغت مرتبته السموات العلي. والغربة تورث الكربة والمصيبة إذ ليس ثمة أمرٌ أصعب وأمرّ من أن يفارق الإنسان مسقط رأسه ومأوى أحلامه وذكرياته. مغادرة الوطن أمضّ وأوجع في منظور الخطيب من لدغة العقارب وعضّة الأفاعي. إليك فقرات من الخطبة التي تكون مشحونة بالعاطفة الصادقة. وممّا ساعد الخطيب على إضفاء العاطفة على كلماته أنّه جرّب الغربة وتحمّل مصائبها ويمكن القول إنّه ذاق الأمرّين في ديار الغربة فلا غرو إذاً أن تدخل كلماته في القلب دون استئذان طالما أنّها تنبع من القلب: «... إنّ غريبَ الدّارِ ولو نالَ مناطَ الثّريا فيكفي أن يقالَ غريبٌ وبعيدُ المزارِ ولو تهيأ له ما تهيأ. فما له من الراحةِ نصيبٌ له. الغربةُ الكربةُ ولو كانت بين العقاربِ ومفارقةُ الأوطانِ صعبةٌ ولو عن سُمٍّ العقاربِ. (زغلول سلام، د.ت: ج١٥/٢)

من البديهي أنّه لا يوجد وسيلة لسبر العاطفة وصدقها سوى أنّ الكلمات الصادقة تؤثّر في النفوس وتحرّك الساكن كما هو الحال في كلمات ابن نباتة التي مرّت علينا للتوّ.

الموسيقى

سمّيت الموسيقى بحقّ سحر الكلام إذ إنّها تعطي النص بريقة وتسقط عليه جمالاً وروعة تسحر بالألباب وتأخذ بمجامع القلوب. قَسّم الأدباء الموسيقى إلى قسمين: الموسيقى

الخارجية (الوزن). الموسيقى الداخلية (الإيقاع). عرّف شفيعي كدكني الموسيقى الداخلية أو الإيقاع بأنّها عبارة عن التناسق والتناغم الموجود بين الحروف المجاورة بعضها لبعض. (شفيعي كدكني، ١٣٧٦: ٥١)

فلننظر إلى النموذّج التالي حيث يمنح السامع الإحساس بإيقاع لطيف جاء نتيجة لتعاقب اللّامات واحداً تلو الآخر. وتحدّث الخطيب عن الزهد والانقطاع عن لذّات الدّنيا ونوّه إلى أنّ حياة الدّنيا متاعٌ قليل لا يعبأ به ولا يستحق الاهتمام به طالما يكون زائلاً وفانياً والموت يحول بين الإنسان وما يشتهيه ثمّ يلمح إلى قصر الأعمار وينهي خطبته بالرجوع إلى اللّه والحاجة إلى زاد التقوى لرحلة طويلة: «... أيها الناس تنزّهوا عن حُبّ الدّنيا فإنَّ متاعها قليل وتزوّدوا بتقواكم فإنّ السفر طويلٌ ولا تطمعوا في هذه الدّنيا فإنَّ البقاء مستحيلٌ كيف لا والمنادي كلّ يوم ولا يقبل اللّه فيه الفداء ولا يرضاه من البديل فكيف تطمعون في الدّنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل. فإلى متى هذه الغفلةُ والقساوةُ ولم يبق مِن العمر إلّا القليل...» (ابن خلكان، ١٩٤٨: ج١٥٦/٣).

استدعاء صور الخيال في خطابات ابن نباتة

أُعزم الأدباء في الحقبة المملوكية بالفنون البلاغية فوظّفوها في أعمالهم الأدبية بكلّ نهم وجشع. بحيث تحولت النصوص الأدبية شعراً كان أم نثراً مَعرضاً للمحسنات اللفظية والصناعات البلاغية بمختلف أنواعها وأشكالها حتّى سمّي العصر بعصر التصنيع والتنميق.

استخدم ابن نباتة كغيره من الخطباء من الوجوه البلاغية ما يخدم المعاني التي عشّشت في صدره. لو سبرنا أغوار الخطابة المملوكية بما فيه خطابات ابن نباتة لَوجدنا أنّ جماليات التشبيه والاستعارة والكناية والاقتباس من أبرز وأهمّ المحسنات البلاغية فيها. بناءً على ذلك كرّسنا حديثنا في الجماليات الآنفة الذكر التي استدعاها ابن نباتة بدوره في كلماته بادئين بجمالية التشبيه.

جمالية التشبيه

إذا أراد الأديب أن يطرح معناً يلفّه التعقيد والغموض يلتجأ إلى التشبيه فيشبّهه بالمعنى المحسوس الذي يألفه السامع بحيث يسهل عليه فهمه واستيعابه. المماثلة الموجودة بين المشبه والمشبه به (أو وجه شبه).

تخوّل الأديب لإجراء عملية التشبيه بينهما. المماثلة أو ما سمّاه البلاغيون بـ "وجه‌الشبه" يجب أن يكون من الإمور المألوفة لدى السامع بحيث لو سمع التشبيه لاعترف به وبجماليته.

(الهاشمي، ١٩٤٣: ٢٢٦) لجمالية التشبيه في خطابات ابن نباتة حيز واسع إذ حاول ابن نباتة تقريب المعاني الصعبة إلى أفهام السامعين وتغليفها بغلاف محسوس. انظر مثلاً عندما أراد أن يوضّح قصر الحياة الدّنيا وقلّتها بالنسبة للحياة الآخرة شبّه الحياة الدنيوية بالبلل الذي تبلّل به أصبعك حينما تدخلها في مياه البحر إذاً قرّب ابن نباتة المعنى إلى أفهام السامعين بحيث لو تأمّلوا قليلاً لاعترفوا بخساسة وتفاهة الحياة الدنيا وسرعان ما يقولون: أين البلل من مياه البحر! وبذلك وضع الخطيب النقاط على الحروف وأوصل المعنى إلى قلب السامع بطريقة بلاغية التشبيه. إليك كلمات ابن نباتة: «... ثمّ أوجب سبحانه وتعالى على العبد في هذه المدّة القصيرة التي بالإضافة إلى الآخرة كساعة من نهار أو كبلل ينال الأصبع حين يدخلها في بحر مِن الأبحار» (زغلول سلام، د.ت: ج١/١٩٨).

والنموذج الآخر هو ما شبّه فيه الخطيب آلام الغربة وأحزانها بلدغة العقارب ولا يخفى على أحد ما للدغة العقرب من أوجاع وآلام. ليس من السهل تخيل آلام الغربة لمن يعيش وسط أقاربه وأهله وخلّانه منغمراً في مشاعر الحبّ والمودّة. ولكن يسهل تخيل الآلام التي تخلّفها لذعة العقارب لكلّ من يتمتّع بأدنى قدر من قوّة الخيال وموهبة التصوير: «... والغربةٌ كربةٌ ولو كانت بين الأقارب ومفارقة الأوطان صعبةٌ ولو عن سّم العقارب...» (زغلول سلام، د.ت: ج٢/١٥).

وفي النموذج الثالث شبّه الخطيب في الرسول ﷺ وآله عليهم السلام بالنجوم والكواكب. لا شكّ أنّه من الصعب جداً تصوّر مدى عظمة الأئمة الأطهار عليهم السلام وعلوّ جاههم ذلك لأنّ الإمامة منزلة مرموقة ومكانة سامية تفوق المنازل المادية مهما بلغت من الرقيّ: فلذا حاول الخطيب إعطاء صورة محسوسة تشبه الأئمة في لمعانها وعلوّها فاختار النجوم التي ترمز إلى اللمعان والرفعة لعلّه يمكن السامع من تخيّل مقام الأئمة عليهم السلام في صورة مشرقة زاهية.

«... أشهدُ أنّ محمّداً عبدُه ورسولُهُ ﷺ وعلى آلِه وصَحبه، نجومَ الاهتداء» (زغلول، د.ت: ج٢/١٥).

جمالية الاستعارة

القدرة التصويرية الهائلة التي تمتلكها جمالية الاستعارة حرّضت الأدباء على استخدامها في العصر المملوكي في أوسع نطاق. ربّما تكمن جمالية الاستعارة في تحليق الخيال في آفاق المعاني السامية. (هاشمي، ١٤١٤: ٢٢٩)

لذلك اعتبر بعض الأدباء الاستعارة من أجمل وأورع الجماليات البيانية. (هاشمي، ١٤١٤: ٢٣٠)

الخطابات المملوكية مليئة بالاستعارة بمختلف ضروبها حتّى أصبحت مَلحماً من ملامحها البارزة. استعار الخطيب ابن نباتة في الخطبة التالية اللسان للقرآن الكريم واليد للسنّة النبوية المباركة حتّى يرسّخ أهمية الزواج في أذهان السامعين. فإذا بالقرآن يتحدّث عن أهمية الزواج وكأنّه خطيب مصقع وإذا بالسنّة تشير إلى الزواج وكأنّ الزواج شيء يشار إليه بالبنان: «... أثنى على الزواج لسانُ الكتابِ وأشارت إليه يدُ السنّة» (زغلول، د.ت: ج١٦/٢).

تتزّين الخطبة التالية أيضاً بزينة الاستعارة. حيث يتحدّث الخطيب عن الموتى الذين تجرّعوا كؤوس الموت حتّى الثمالة. وأقسم بأنّ الدهر لن يستعيدهم إلى الدّنيا بعد أن ماتوا: «... قد شربوا من الموت كأساً مرّة وآلى عليهم الدّهر ألية برّة لا يجعل لهم إلى الدّنيا كرّةً...» (زغلول، د.ت: ج١١٧/٤).

فقد شبّه ابن نباتة الموت بالشراب والجامع الذي خوّل الخطيب لإجراء الاستعارة هو أنّ الموت والشراب يتلاقيان في صفة هي أنّ كليهما يتذوّقان ويشربان. ثمّ استعار الخطيب الكأس للموت في حال أنّه يستعمل عادة ما للشراب وهكذا رأت الاستعارة المكنية نور الوجود. لم يكتف ابن نباتة بذلك حيث صوّر الدهر إنساناً يحلف ويقسم ثمّ حذف الإنسان واستعار القَسم للدهر حتّى تتولّد استعارة مكنية أخرى.

جمالية الكناية

ربما لم يقل أحد أحسن وأوجز ممّا قال قدامة بن جعفر في الكناية حيث قال: «... الكناية عبارة عن التعريف بالأشياء بطريقة غير مباشرة» (هاشمي، ١٤١٤: ٢٧٥). الكناية تعتبر من أهمّ وأبرز الجماليات التي استوردها الخطباء في الفترة المملوكية في كلماتهم فلذا النماذج التي نذكرها من الكناية تكون بمثابة غيض من الفيض ليس أكثر. أراد أحد الخطباء في تلك الفترة الحثّ على العمل بفريضة الجهاد التي تُعدّ من أركان الدّين. وما يدلّ على أهمية الجهاد آنذاك أنّ الأعداء من المغول والصليبيين عزموا على الإطاحة بالمماليك ومصادرة البلاد والأموال التي كانت تحت سيطرتهم.

فكان الشعراء في أشعارهم والخطباء في خطاباتهم يحاولون دائماً تحمية الحماس في نفوس المقاتلين وتشجيعهم على حماية بلدانهم مستخدمين في ذلك جمالية الكناية. انظر كيف يدعوا ابن نباتة سامعيه إلى الاستعداد التام لإحياء فريضة الجهاد: «... فشمِّروا ساقَ الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد...» (زغلول، د.ت: ج٣/٢).

والتشمير عن ساق الاجتهاد أو ساعد الجِدّ تعبير كنائي يراد بها الحالة التي يكون فيها الإنسان على أهبة الاستعداد للقيام بأمر هامّ ذي بال يتطلّب من الإنسان غاية الجهد والمراس.

والخطبة الأخرى التي وظّف فيها ابن نباتة أسلوب الكناية هي التي حذّر فيها ابن نباتة سامعيه من أهوالِ يومِ القيامة يوم تُبلى السّرائر وما مِن قوّة ولا ناصر: «... علَتِ الصيحاتُ مِن هَول ذلك اليومِ الطويل...» (زغلول، د.ت: ج١٣/٢).

وجعلَنا ابن نباتة في كلماته السابقة في صورة رهيبة. صورة لجموع حاشدة من الناس بُعثوا في يوم الحشر من القبور وهم يصيحون من هول ذلك اليوم فامتلأت الأجواء صخباً وضجّة. فأراد الخطيب باعتلاء الصيحة اشتداد الخوف وارتفاع الذعر والهول لمصيبة حلّت بالناس لا تطاق.

خلق ابن نباتة مشهداً مهيباً ومهولاً مستخدماً فيه جمالية الكناية: المشهد الذي صورّه الخطيب يتعلق بإحدى المعارك الدامية التي قُتل فيها خلق كثير فضرّجت الأشلاء بالدماء فكنّى ابن نباتة عن هذا اليوم الذي أريقت فيه الدماء بأنّ الشيوخ خضبوا لحاهم بالدماء: «... فكم من شيخ خُضبت شيبتُهُ بالدّماء...» (زغلول، د.ت: ج١٣/٢).

من الواضح بالشيوخ الّذين لا يخضبون لحاهم بالدماء وإنّما أراد ابن نباتة هو أن يضع السامع أمام صورة رهيبة سفكت فيها الدماء وتلطّخت فيها الجثث بالدماء.

جمالية اقتباس

ليس الاقتباس من القرآن الكريم حكراً على العصر المملوكي فطالما اقتبس الأدباء من هذا الكتاب العزيز لفظاً ومعناً وأسلوباً في كلّ الأدوار والأعصار التي تلت الإسلام. فقد ارتوى الخطيب المملوكي بدوره من منهل القرآن الكريم العذب ومعينه الصافي إلى درجة أنّه بات بالإمكان القول بأنّ كلماته يفوح منها العبق القرآني المنعش فلا نكاد نرى خطبة مملوكية تخلو من جماليات القرآن الكريم. فلو أردنا أن نذكر الكثير من الأمثلة والنماذج للاقتباس لطال بنا المقام وصار المقال مطوّلاً فاكتفينا بما نستعرضه فيما يلي:

﴿**كنتم خيرَ أُمة أُخرجَت لِلنّاسِ تأمُرونَ بالمعروفِ وتَنهونَ عَنِ المنكر...**﴾ (آل عمران/١١٠).

فوصف الخطيب أسوة بالآية الكريمة الأمة الإسلامية بالوسطية والاعتدال وعدم الانحراف عن الصراط السويّ وأمّا خطبتُه فهي: «خيرُ أمّةٍ أُخرجَت للنّاسِ في وسَطِها واعتدالها وظهورِ الهدايةِ والاستقامةِ في أحوالِها...» (زغلول، د.ت: ج٤٢٠/٤).

كان الخطباء في العهد المملوكي يفتتحون خطاباتهم عادة ما بشيء من القرآن الكريم حتّى يفوح في الأجواء العبق القرآني المنعش وتتزين كلماتهم بزينة الآيات البينات. ومن هذه الخطب المستهلة بالقرآن الكريم هي: «أستغفرُ اللّهَ العظيمَ لي ولكم ولسائر المسلمين فاستغفروه إنَّه هو الغفور الرّحيم...» (زغلول، د.ت: ج١٤/٢).

من الملاحظ أنّ ابن نباتة أخذ في كلماته شيئاً من الآية الكريمة: ﴿**أَستغفِرُ لكم ربّي إنَّه هوَ الغفورُ الرحيمُ**...﴾ (يوسف/٩٨).

وقد بلغ الأمر بابن نباتة في الاستمداد من القرآن الكريم إلى أن اقتبس آية بكاملها وأدرجها في خطابه ومن هذا النمط نذكر موضعين: قال ابن نباتة: «فاتَّقوا اللّهَ ما استطعتُم واسمعوا وأطيعوا وأنفِقوا خيراً لِأنفسكم ومَن يوقَ شُحَّ نفسِهَ فأولئك هُم المفلحونَ...» (زغلول، د.ت: ج١٣/٢).

كما يبدو أنَّ الخطبة هي آية كاملة (التغابن/١٦) دون زيادة فيها أو نقصان.

والموضع الثاني: قال ابن نباتة: «لا إلهَ إلّا هُو ربُّ السّمواتِ والأرضِ وما بينهما ربُّ المشارقِ والمغاربِ...» (خفاجي، ١٤١٢: ١٥٧).

ونلاحظ أنّ الخطبة مستوحاه من آية من آيات الله البينات (الصافات/٥) وتكاد تكون ترجمة حرفية لها.

النتائج

الدولة الّتي خلفت في مصر والشام الدولة العباسية البائدة أخذت على عاتقها دحر الأعداء الذين كانوا يتربصون بالمماليك وإحياء التراث الإسلامي والعربي الذي أبيد جرّاء الهجوم المغولي الشرس على بغداد. كان الخطباء بمن فيهم ابن نباتة يُؤدّون دورهم في الدفاع عن الدولة المملوكية الّتي ترمز للدولة الإسلامية العربية. فراحوا يُشجّعون عواطف المقاتلين ويهيّجون حماسهم لصدّ هجوم الأجانب والقضاء عليهم. كان الخطباء بمن فيهم ابن نباتة يوظّفون في كلماتهم مضامين دينية وأخلاقية وسياسية يرفعون بها معنويات المقاتلين ويعزّزون طاقاتهم القتالية ومن هنا تحمل الخطب المملوكية بمافيها خطب ابن نباتة طابعاً دينياً وأخلاقياً وسياسياً. استغلّ ابن نباتة كأبرز الخطباء في الحقبة المملوكية آليات فنيّة متعدّدة أثْرت المستوى الدلالي لكلماته وزادت من تأثيرها في النفوس من أهمّها: جماليات

العاطفة والموسيقى والتشبيه والاستعارة والكناية والاقتباس. ولا شك في التأثير الفني الذي تتركه هذه التقنيّات البيانية في رفع المستويات الشكلية والدلالية للخطابة. يمكن اعتبار الخطابة في تلك الفترة بما فيها خطابات ابن نباتة تلبية لحاجة ملحّة لدى المجتمع المملوكي إذ كان المجتمع آنذاك مهدّداً بالأخطار المغولية والصليبية فكان بأمسّ الحاجة إلى من يدافع عنه حيال الأعداء دفاعاً مستميتاً.وتُعدّ الخطابة في ذلك التوقيت بضاعة تحتاجها البيئة المملوكية. إذ أنّها تمّ صياغتها وفقاً لمتطلبات العصر وحاجياته. فضلاً عن الحثّ على القتال كان الخطباء بمن فيهم ابن نباتة يتطرّقون أحياناً إلى قضايا أخلاقية لتحسين سلوك المجتمع وتقويم الاعوجاجات. بناءً على ذلك كلّه يمكن القول إنّ خطب ابن نباتة تكون مرآة صافية وصادقة تعكس الحياة السياسية والاجتماعية بشكل لا غبار عليه. ولذلك تعتبر الخطابات المملوكية مصدراً خصباً وصالحاً لدراسة الأوضاع العامّة للعهد المملوكي.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. ابن خلكان (١٩٤٨م). وفيات الأعيان. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

٢. ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين (١٩٨٦م). لسان العرب. ج٥، بيروت: دار صادر.

٣. أرسطو (١٩٥٩م). الخطابة. القاهرة:مكتبة النهضة المصرية.

٤. إميل، ناصيف (١٩٩٥م). أروع ما قيل من الخطب. بيروت: دار الجيل.

٥. أميري، جهانگير (١٣٨٧ش). تاريخ الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني. طهران: منشورات سمت.

٦. أميري، جهانگير؛ وآخرون (١٤٣٧هـ). أسلوب الهجاء في العصر المملوكي (دراسة تحليلية في مضامينه وجمالياته الدلالية). مجلة اللغة العربية وآدابها، السنة ١٢، العدد ١، الربيع، صص١-٢٥.

٧. أمين، أحمد (١٩٦٧م). النقد الأدبي. بيروت: دار الكتاب العربي.

٨. جليليان، زهرا (١٣٩٤ش). بررسي ساختاري ومحتوايي خطابه در عصر مملوكي. دانشگاه رازي كرمانشاه.

٩. خفاجي، عبدالمنعم (١٩٩٠م). قصة الأدب في المصر. بيروت: دار الجيل.

١٠. ـــــــــــــ (١٩٩٠م). الحياة الأدبية (بعد سقوط بغداد). بيروت: دار الجيل.

١١. ـــــــــــــ (١٩٩٠م). الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي. بيروت: دار الجيل.

١٢. زغلول، محمد (دون تا). الأدب في العصر المملوكي. الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية.

١٣. زمخشري، محمود بن عمر (١٩٥٣م). أساس البلاغة. بيروت: إحياء المعاجم العربية.

١٤. زيدان، جرجي (١٩١٤م). تاريخ آداب اللغة العربية. ج١، بيروت: مطبعة الهلال.

١٥. شفيعي كدكني، محمدرضا (١٣٧٦ش). موسيقي شعر. ط٣، طهران: انشارات آگاه.

١٦. ضيف، شوقي (١٩٥٦م). الفن ومذاهبه في النثر العربي. ط٢، بيروت: مكتبة الأندلس.

١٧. الفاخوري، حنا (١٩٨٦م). الجامع في التاريخ الأدب العربي القديم. بيروت: دار الجيل.

١٨. ـــــــــــــ (١٣٧٧ش). تاريخ الأدب العربي. طهران: نشر طوس.

١٩. فتح اله زاده، اباذر (١٣٨٧ش). **نگرشي** بر سير خطابه وبررسي آن در دوره صدر اسلام. بناب، دانشگاه آزاد اسلامي.

٢٠. فروغي، محمد علي (١٣٤٤ش). آئين سخنوري، طهران: انتشارات زوار.

٢١. فقهي، عبدالحسين (١٣٩٠ش). بررسي تطور خطابه در دوره جاهلي وصدر اسلام. لسان مبين، السنة ٢، العدد ٤.

٢٢. هاشمي، أحمد (١٩٩٤م). جواهر البلاغة في المعاني والبيان. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.